

فصل الثانی والعشرون

العباسيون

٥٧٦ — ٥٨٩ هـ : ١١٨١ — ١١٩٣ م

الصلبيون

الخليفة الناصر — الملك الصالح إسماعيل ، أمير دمشق — صلاح الدين
الأيوبي يدعى إلى دمشق — الحرب بين صلاح الدين والملك الصالح —
تولية صلاح الدين على سوريا — تلقيه السلطان — وفاة الملك الصالح —
سلطة صلاح الدين — مملكة بيت المقدس — الصليبيون ينكثون
بشروط المهاذنة — موقعة طبرية — انهزام الصليبيين — الاستيلاء
على عكا ونابلس وأريحا وغيرها — حصار القدس — شروطها —
مروءة صلاح الدين — الحرب الصليبية الثالثة — حصار عكا —
دفاعها المستميت وانهزام الصليبيين — وفاة فردريك بارباروسا —
وصول ملكي فرنسا وانكلترا — الاستيلاء على عكا — قسوة ريكاردوس
(قلب الأسد) — صلاح الدين يقوض عسقلان — الصلح مع ريكاردوس
وفاته صلاح الدين — صفاته وأخلاقه

الملك الصالح
ابن نور الدين
محمود

وعندما بلغ صلاح الدين خبر وفاة سيده وولى نعمته ، كتب في الحال إلى
الملك الصالح كتابا يعزیه فيه على وفاة أبيه ويهنئه باعترائه العرش ، كما قدم إليه
في الوقت نفسه الهدايا الممتازة دلالة على خضوعه وولائه التام ، كذلك يقال إنه
بر بوعده ، وبقي متمسكا بالدعاء له في خطبة الجمعة ، وبضرب النقود باسمه ، وهما
ميزتان من أظهر ميزات السلطة العليا . غير أن الملك الشاب لم يلبث أن وقع
تحت نفوذ وزرائه وبطانته ، فنشب الخلاف بينه وبين صلاح الدين الذي استاء
من الدسائس التي كانت تحاك ضده ، وبعث إلى وزراء الملك كتابا شديد التهجة
يحذرهم فيه بمغبة الخيانة ، ويهددهم بأنه سيأتي بنفسه إلى دمشق لمعاقتهم على

سوء تصرفهم ، فلما استلم الأمير « كشتكين » ذلك الكتاب أسرع إلى حلب كي يطلع عليه الملك الصالح بنفسه تاركا دمشق تحت رحمة الفرج ، الذين اتهموا تلك الفرصة وحاصروا المدينة حصاراً شديداً لم يرفعوه إلا بعد أن دفع أهلها الجزية عن يد وهم صاغرون ، فاستشاط صلاح الدين غضبا عندما بلغه هذا الخبر . ويقال إن أحد كبار دمشق^(١) كان قد استدعاه وقتئذ ليحتل المدينة ، وعلى هذا سار في سبعمائة جندي واستولى عليها عنوة ، غير أنه لم ينزل قصر نور الدين بل حل دار والده التي كان يسكنها وقت أن كان في دمشق ، ثم أرسل إلى أتابك الشام كتابا رقيق الحاشية يعرب فيه عن ولائه وشدة احترامه لمولاه ، مؤكداً له أنه إنما جاء إلى الشام ليؤدي إليه فريضة الطاعة ، فجاءه رد شديد اللمجة . ويقال إن الملك بدلا من أن يثنى على إخلاصه وولائه اتهمه بنكران الجليل والتمرد والعصيان ، فسخط صلاح الدين وزحف على حلب كي يقابل بنفسه الملك الصالح ويسوى الأمر معه شخصياً . غير أن الملك لم يرض على هذا التصرف وقد كان عمره وقتئذ اثنتي عشرة سنة ؛ فسار في السوق وهو يخاطب الناس قائلا « قد عرفتم إحسان أبي إليكم ، ومحبته لكم ، وسيرته فيكم ؛ وقد جاء هذا الظالم الجاحد إحسان والدي إليهم يأخذ بلدي » ، فخرج أهالي حلب شاكي السلاح . ولما رآهم صلاح الدين على هذا النحو خاطبهم قائلا : « يعلم الله أني لم أرم قط إلى إشهار السلاح في وجه الملك ، ولكنهم طالما أرادوا ذلك فليكن كما يريدون » . وعندئذ دار قتال رائع بين الفريقين أسمر عن هزيمة أهل حلب وفرارهم إلى المدينة . فلما أحس كشتكين بعجزه حرض الإسماعليين على قتله ، وكاد يفلح في تنفيذ خطته لولا أن صلاح الدين كان قد احتاط للأمر ، وعند ما فشل وصي الملك الشاب في مؤامرة التجأ إلى الصليبيين ، كما استنجد في الوقت

نفسه بسيف الدين غازى أتابك الموصل^(١) ؛ فذهب الصليبيون إلى الأخذ بناصره وحاصروا حصص ، ولكنهم عندما علموا أن صلاح الدين يزحف عليهم بجيشه الجرار فكوا الحصار وولوا هاربين . وقد حاول صلاح الدين مرة أخرى أن يتفاهم وديا مع الملك الصالح فأرسل إليه كتابا رقيق الحاشية يمرض فيه استعداده إلى رد حماه وحصص وبلبك على شرط أن يقره على ولاية دمشق ومصر ، غير أن الملك رفض إجابة سؤاله رفضاً باتاً .

ولما فشلت تلك السياسة السلمية التجأ صلاح الدين إلى إشهار السلاح ، وحاصر مدينة حلب حصاراً شديداً حتى اضطر كشتكين وسيف الدين غازى إلى أن يطلبوا الصلح ، كما أرسل ابن نور الدين الطفلة لعلها تثير في قلبه عوامل الشفقة ، فاستقبلها صلاح الدين استقبالا وديا وحباًها بمطفه كما أغدق عليها البطايا والمنح ونزولا على طلبها رد إلى أخيها جميع المدن التي كان قد استولى عليها من إمارة حلب ، ولكنه مع ذلك أوقف الدعاء في الخطبة باسم الملك الصالح وحول أنظاره شطر الخليفة العباسي « مصدر النفوذ الشرعي » طالبا منه أن يقره على ملكه ؛ فلم يعتم الخليفة أن منحه طلبه وأنعم عليه فوق ذلك بلقب « السلطان » .

صلاح الدين
يلقب بالسلطان

وفي عام ٥٧٩ هـ توفي الملك الصالح في سن التاسعة عشرة ، وولى بعده ابن عمه عز الدين الذي كان قد خلف سيف الدين في أتابكية الموصل ، واستولى على حلب بعد أن عوض أخاه عماد الدين عنها أتابكية سنجار ؛ وما طال الزمن حتى اعترف بسلطة صلاح الدين ، وحذا حذوه أمير الموصل على أن يقره على البلاد الواقعة بين دجلة والفرات ؛ وهكذا لم تكد تنتهي سنة ١١٨٢ حتى غدا صلاح الدين السيد الأعلى في آسيا الغربية ، ومن جعلها سلطنة قونية وإمارة أرمينيا^(٢) ، وأصبح له الحق في إلزام أمراء هاتيك المناطق بمساعدته وقت الطوارئ .

وفاة الملك الصالح
— ١١٨١
م ١١٨٢

٥٧٦-٥٨٩ هـ

سلطة
صلاح الدين

(١) ابن عم الملك الصالح .

(٢) وعاصمتها خلاص وكان يحكمها أمير مسلم .

وقد كانت مملكة القدس الصليبية وقتئذ تعتمد في الحصول على الرجال والمواد الحربية والطعام على جميع أنحاء العالم الأوربي وأسرانه الذين يتوقون إلى «إعلاء كلمة الله» ، والمغامرة في الحصول على الكنوز الطائلة ، والثروات العريضة ، ومناصرة المهوسين المتفانين في مقاتلة الكفار ، كما كانت تعتمد أيضاً على طريدى العدالة الذين كانوا يتدققون بكثرة على سواحل الشام ؛ وكان أمورى قد توفى وخلفه ابنه على العرش ، غير أنه كان مصاباً بمرض معد^(١) جعله أجدر بالرثاء منه إلى إدارة شؤون الدولة ، فتزوجت أخته أزبيلا من أمير مونتفرات ، وولدت له طفلاً أسماه «بلدوين» ، ولما توفى زوجها تزوجت ثانية من كيديلسكنان الذى عينه بلدوين نائباً عنه ، واسكنه سرعان ما عزله ونصب مكانه «ريموند» أمير طرابلس الذى لم يلبث أن تنازل عن العرش لابن أخته بلدوين الخامس ، ولم يكن قد ناهز بعد الخامسة من عمره . والمظنون أن الملك الطفل قتل بإيعاز من أمه ، وسواء أكانت هذه الرواية صحيحة أم مختلفة ، فال معروف أن «أزبيلا» على أثر وفاة ابنها نادى بنفسها ملكة على القدس ، ووضعت بيدها تاج الملك على مفرق زوجها ؛ وهكذا انتقل عرش فلسطين في سنة ١١٨٧ إلى أزبيلا وزوجها «ليسكنان» . وفى عهد بلدوين المجذوم عقدت معاهدة صلح بين السلطان والفرنج ؛ ويقول ميشو : «إن هذه الهدنة جديرة بالملاحظة ، إذ أن المسلمين كانوا جد حريصين على تنفيذ أحكامها فى حين لم يتقيد المسيحيون بشروطها قط ، كما ظهر عليهم ميل شديد إلى إشهار الحرب من جديد ؛ وكان ريجينولد^(٢) زوج كونستانس أرملة ريموند قد وقع أسيراً فى قبضة نور الدين محمود مدى حين ، وما كاد الملك الصالح يفك سراحه حتى

أزبيلا وليسكنان
١١٨٧ م

١١٨١ -
١١٩٣ م

(١) كان مجذوماً .

(٢) ويسميه العرب أرنات .

تزوج من أرملة هانقرى ، التى حصل بزواجه منها على إمارتى حصن الكرك ومونتريال .

الفرنج يتضمنون
شروط الماهدة
م ١١٨٦

وفى سنة ١١٨٦ نقض « ريجنولد » شروط الماهدة ، وانقض بمجيئه على إحدى القوافل المارة بالقرب من حصنه ، وذبح عدداً غير قليل منهم بعد أن سلب أموالهم ، فغضب السلطان غضباً شديداً وطلب من حاكم القدس أن يعاقب المعتدى ، ولما رفض الملك إجابة طلبه أخذ « صلاح الدين » على عاتقه تأديب « ريجنولد » ، وحاصر بنفسه الحصن الذى وقعت بقربه تلك المأساة الدامية ، كما أرسل إلى الجليل قوة صغيرة بقيادة أكبر أبنائه « على » الملقب بالملك الأفضل لمراقبة حركات الفرنج ؛ فلم يكد الصليبيون يملون بوجوده حتى وحدوا صفوفهم وزحفوا عليه ، فأسرع السلطان إلى نجدة ابنه ، وكانت الكفتان متعادلتين فى

٥٥٨٩-٥٥٧٦

القوة والسلاح ؛ فسكّر جيش الفرنج فى سهول « صفورية » ، ولكن صلاح الدين استطاع بمهارته الحربية أن يحرضهم على الخروج من مكبهم النيع إلى واد مكشوف بين الجبال الواقعة بمقربة من بحيرة طبرية فى تل حطين ، فسار الفرنج كأنهم جبال تتحرك شطر البحيرة ، ولكن جنود السلطان أخفوا أهبتهم وقطعوا عليهم الماء ، فتقابل الفريقان يوم الخميس ٢ تموز بعد أن قضى السلطان

٢٤ و ٢٣ ربيع
الثانى ٥٥٨٣ هـ

طوال الليل يهيم الصفوف ، ودارت معركة رائعة بينهما يوم الجمعة وصباح السبت المصادف ٢٥ ربيع الثانى سنة ٥٥٨٣ هـ ، فأسفرت عن تقويض دطائم دولة

٣ و ٢ تموز
م ١١٨٧

كيديلسكنان بعد أن آتخن فيهم المسلمون ، وقتلوا منهم عشرة آلاف من بينهم جماعة من أشهر القواد ؛ وكان من جملة الذين وقعوا أسرى فى أيدي المسلمين كيديلسكنان نفسه ، وأخوه جوفرى ، ورينود صاحب الكرك (مثير هذه الحرب الشمواء) وابن هانقرى ، وكونت هوغ ، وابن لورد طبرية ؛ ولم ينج من الأسر غير ريموند أمير طرابلس ، وأمير طبرية ، ورينود ، وابن أمير أنطاكية ويليان ، إذ أفلتوا جميعاً من القوة التى تعقبتهم ووصلوا إلى الساحل . أما

موقعة طبرية
٤ تموز ١١٨٧ م

كيد يلسكنان فقد عومل معاملة حسنة ، غير أن السلطان أمر بقتل « رينود » وبعض القواد الآخرين الذين كانوا قد أدخلوا بشروط المعاهدة وذبحوا المساكين خلال الهدنة ؛ كذلك لم يمهّل الأعداء حتى يلعوا شعهم ، بل واصل مطاردتهم بعد موقعة حطين ، وما هو إلا أن استولى على حصن طبرية ووقعت في قبضته زوجة ريموند أمير طرابلس فردها إلى زوجها معزة مكرمة . ويقول المؤرخون إن المسلمين لم يسي أحد منهم قط إلى النساء والأطفال . ومما يؤثر عن بطولتهم أنهم طيلة استيلائهم على عكا قاوموا الجيوش المسيحية مقاومة عنيفة مدة سنتين كاملتين ، غير أن تلك المدينة وهي في قبضة الصليبيين لم تستطع الدفاع عن نفسها غير يومين ثم أذعنت بالتسليم إلى صلاح الدين ، وحذت حذوها نابلس وأريحا ، والرملة ، وقيصرية ، وأرصوف ، ويافا ، ويروت ، وعدة مدن أخرى بحيث لم يبق في أيدي الصليبيين غير صور ، وطرابلس ، وعسقلان التي قدمت طاعتها وفازت بشروط مرضية بعد حصار لم يدم طويلا .

— ١١٨١
م ١١٩٣

ومن ثم توجه السلطان صوب القدس التي كانت تضم داخل أسوارها زهاء الستين ألف جندي علاوة على سكانها الأصليين ، وحالما أشرف على المدينة بعث في طلب أشرافها وخاطبهم بقوله : « إنه يحترم مدينة القدس ولا يرغب في انتهاك حرمتها بإراقة الدماء ، ولهذا ينصحهم بترك استحكاماتهم . أما هو فيتعهد من جهته بأن يعوضهم عن أملاكهم بالأموال والأراضي » ، غير أن الصليبيين لتمعصبهم المقوت رفضوا تلبية هذا الطلب المنطوي على شيء كثير من السخاء ؛ فسخط عليهم صلاح الدين وحاصر المدينة مدى حين . ولكن الصليبيين عادوا وطلبوا الصلح « باسم إله جميع البشر » ، فتغلب عطف السلطان على رغبته في الانتقام ، وسمح للروم ونصارى القدس بالسكنى في بلاده بعد أن ضمن لهم التمتع بالحرية التامة ، كذلك أمر جميع جنود الصليبيين داخل المدينة بأن يرحلوا مع عائلاتهم وأطفالهم ، وضرب لهم موعداً ٤٠ يوما ، كما ضمن لهم سلامة الرحيل إلى

بيت المقدس

مرودة
صلاح الدين
ولانسنته

صور أو طرابلس ، وحدد فدية الرجل بعشرة دنانير شامية وخمس دنانير للمرأة ودينار واحد للطفل .

سروية
صلاح الدين
وانسانيه

وكان من شروط الصلح أن من يعجز عن أداء الفدية يؤخذ أسيراً ، غير أن ذلك الشرط أهمل إهمالاً تاماً ، إذ يقال إن السلطان اقتدى وحده عشرة آلاف شخص ، كما أطلق أخوه سيف الدين^(١) سراح سبعة آلاف أخرى ؛ وقد كان رجال الدين عند ما غادروا المدينة يحملون معهم الأموال والأمتعة ، كذلك شوهد كثير من النصارى يحملون والديهم وأصدقاءهم الذين بلغ بهم المرض أو الضعف حداً لم يستطيعوا معه السير على الأقدام ، فتأثر السلطان بهذا المنظر وأمر حالاً أن توزع عليهم الصدقات ، وأن يزودوا بالدواب ؛ ولما استأذنته الملكة « أزيلا » وكان يصحبها بعض الأمراء أذن لها بالسفر وحباها بكرمه الفياض ، وكان معها وقتذرهط من النساء اللواتي كن يعملن بالصياح والنحيب وهن حاملات أطفالهن ، فلما اقتربن منه ناشدته أن يفك سراح أزواجهن وأولادهن وإخوانهن قائلات إنهن سيقرن هذه البلاد من غير مارجعة ، فإذا فقدن رجالهن ، فإنما يفقدن أمهلهن الوحيد في الحياة ، ولو أشفق عليهن وردم إليهن لأزال بؤسهن ، وأحيا فيهن موات الأمل ، فشن سميدات بفيض كرمه وواسع رحمته ، فتأثر صلاح الدين أى تأثر بتوسلاتهن ؛ وفي الحال أمر برد الأسرى إلى أقاربهم ، ووعد فوق ذلك بمعاملة الباقين منهم بالمطف والرأفة ، كما وزع الصدقات على اليتامى والأرامل ، وسمح لرجال الصحة وإن كانوا قد شهروا السلاح عليه بأن يواصلوا إسعاف الجرحى ومعالجة المرضى والعناية بالحجاج المسيحيين . ويمكننا بمد هذه الإلمامة القصيرة أن ندرك البون الشاسع والفرق المدهش بين صفات صلاح الدين السمحة ، وبين قسوة الأمراء المسيحيين ووحشيتهم . ويقول ميلز بهذا الصدد : « إن كثيراً من المسيحيين الذين غادروا

١١٨١
١١٩٣

(١) سيف الدين أبو بكر الملقب بالملك العادل .

بيت المقدس رحلوا إلى أنطاكية ، غير أن بوهموند أديرها لم يحرمهم الضيافة فحسب بل سلبهم أيضاً أموالهم ، في حين كان هؤلاء البائسون أينما ساروا في بلاد المسلمين يلاقون ضروب العطف والكرم ؛ ويسوق المسيو « ميشو » بعض الأدلة المدهشة عن قسوة قلوب النصارى المحليين نحو منفي بيت المقدس فيقول : « إن هؤلاء الساكنين المنكودي الحظ بعد ما لاقوا صدا من إخوانهم نصارى الشرق هاموا على وجوههم في الشام ، حتى عضهم الجوع بأنياه الضروس ، ومات الكثير منهم جوعاً وكداً ، كما أغلقت طرابلس أبوابها دونهم حتى بلغ اليأس بإحدى النساء مبلغاً عظيماً ، وألقت ابنها الطفل في اليم ، وهي تلعن النصارى الذين رفضوا مساعدتها » .

ومما يثير الإعجاب أن السلطان صلاح الدين أحترم شعور المغلوبين ، فلم يدخل المدينة بجيشه الجرار إلا بعد أن غادرها جميع الصليبيين . وفي يوم الجمعة ٢٧ رجب (١) سنة ٥٨٣ دخل بيت المقدس يحف به الأمراء وأشرف الإمبراطورية الذين جاءوا لتهنئته على هذا النصر المبين ، فأمر بترميم ما دمرته الحروب ، وتشديد الجوامع والكنائس التي هدمها الفرنج ، ووضع أساساً حكماً لإدارة دولاب الدولة يختلف كل الاختلاف عن حكومة الصليبيين المستبدة ؛ ومن ثم توجه إلى « صور » التي كان الصليبيون قد نزلوها بعد فك سراحهم ، وقويت بهم حامية المدينة ، وتهيأت للمقاومة بقيادة كونراد مركيز مونتفرات (٢) ، وكان رجلاً قديراً ، واسع الحيلة والدهاء ، فرفض تسليم المدينة بحجة أنه خاضع للملك فيما وراء البحار ، فتحول السلطان عنها إلى حين وسار حذاء ساحل البحر ، واستولى بالتتابع على اللاذقية ، وجبله ، وصهيون ، وبيكاس ، وبؤزير ، ودبر برساك ، وحصون أخرى كانت لا تزال في أيدي الصليبيين ، ثم أفرج عن « كيديلسكنان »

٥٧٦-٥٨٩

(١) يوم المراج .

(٢) ويسميه العرب مركس .

الذى أقسم له بشرفه أن يغادر البلاد إلى أوربا ، واسكنه ما إن شئ نسيم الحرية حتى نقض عهده ، وحشد جيشاً لجباً من فلول الحاميات الصليبية والقوات الآتية من الغرب ، ثم حاصر مدينة عكا التى تحولت إليها الآن أنظار القارات الثلاث ، وحصروا اهتمامهم بها مدة سنتين كاملتين .

الحرب الصليبية
الثالثة

أحدث سقوط مدينة القدس دويًا هائلاً فى العالم المسيحى ، وأفقرغ رجال الكهنوت جهودهم فى الاستنجد بالشعوب المسيحية والاستجارة بالملوك والأمراء وإقناعهم بإشهار حرب صليبية أخرى ؛ فتكلت جهودهم بالنجاح التام وانهاالت النجذات على صور والمسكر الضارب بقرب عكا ، واشترك ثلاثة ملوك من أعظم ملوك المسيحيين شأنًا فى تلك الحرب الشعواء ، وهم : فريدرىك بارباروسا إمبراطور ألمانيا ، وفليب أوغسطس ملك فرنسا ، وريكاردوس قلب الأسد ملك انكلترا . ولو أن صلاح الدين — بما اشتهر به من بعد النظر والهمة — وخذ يومئذ أسطولى مصر والشام وضرب حصاراً على السواحل الفينيقيّة لمرقل مساعى الصليبيين وشل حركتهم فى فلسطين ، وحال دون إزال القوات الجديدة التى سارعت إلى نجدة إخوانهم ؛ ولكنه على ما يلوح نرى أن سلامة البلاد الفينيقيّة تتوقف على مناعتها من البحر ، وأن النصر فى البر مهما كانت خطورته لا يضمن منع ورود النجذات بطريق البحر ؛ ومما لاشك فيه أن السفن الأوربية كانت تقدم يومياً بالأقوات والذخائر ، والمدد والرجال . ويقول المؤرخون أمثال ابن الأثير وابن شداد بهذا الصدد : « كان صلاح الدين يبنى على سكان المدن التى يفتحها كما كان يؤمنهم على أموالهم ومتاعهم . والمعروف أن الفرنج كانوا يهرعون إلى صور بأموالهم ونسائهم وأطفالهم حتى تجمع منهم عدد عظيم ، وطفقت تردم النجذات من وراء البحار » . ويقول الرواة : إن رؤساء النصارى تذرعوا بكل وسيلة لإثارة روح التمسب فى شعوب أوروبا كافة . أما بطريك القدس الذى كان صلاح الدين قد أحسن معاملته فقد أخذ يطوف المدن الأوربية حاملاً

صورة المسيح ، وقد جرحه أحد الأعراب ليحتم بذلك على أخذ الثأر ؛ فغظم الأمر على الفرنج ، وفي الحال حشدوا جيشاً ضخماً انتظم في عقده عدد كبير من النساء . ويروى لنا شاب مسيحي أخذ أسيراً « أنه وحيد أرملة فقيرة لا تملك من حطام الدنيا غير بيت واحد باعته وجهازه بثمنه وسيرته لمحاربة المسلمين » . وهكذا تدفقت جموع الفرنج برأ وبجرأ من كل فج عميق . ولما اجتمعوا بمدينة صور رأوا أن أول ما ينبغي لهم القيام به هو مهاجمة « صيدا » ، ولكنهم عادوا وانفقوا على الزحف على عكا ومحاصرتها ؛ فساروا إليها حذاء البحر ، وكانت تحميهم من جهة البحر نيران أساطيلهم ، وفي الواقع كان البحر أعظم ملاذ لهم حيث كانت السفن تمخر عبابه لنقل الأقوات والرجال والمواد الحربية من الخارج وفي ١٥ رجب سنة ٥٨٥ أنزلوا جيوشهم بالقرب من المدينة ، وضربوا حولها حصاراً شديداً ، وعند ما بلغ صلاح الدين خبر هذا الزحف جمع أمراءه واستشارهم ، وكان في رأيه أن يشتبك معهم في القتال أثناء زحفهم ، غير أن أمراء الجيش أثنوه عن عزمه ونصحوا له أن يهاجمهم في ميدان مكشوف بالقرب من عكا ؛ فلما وصل صلاح الدين تلك المدينة رأى الصليبيين قد نزلوا عليها وأقاموا جناحيهم على البحر ، وبذلك قطعوا عنها جميع المواصلات البرية ، ويقول ابن الأثير : « لو أن العسكر اتبعت رأى صلاح الدين في مسيرتهم ومقاتلتهم قبل نزولهم على عكا لكان بلغ غرضه وصدى عنها ، ولكن إذا أراد الله أمراً هياً أسبابه » ، فمسكر السلطان أمام الصليبيين وضرب خيمته على « تل كيسان » كما امتدت ميمنته إلى تل « الفياضية » وميسرته إلى نهر بيلوس^(١) ثم أخذت ترده القوات بطريق البر من الموصل ، وديار بكر ، وسنجار ، وحوران . وفي مستهل شعبان سنة ٥٨٥ انقضت القوة الرئيسية على الصليبيين انقضاء الصاعقة ، كما حل عليهم في الوقت نفسه تقى الدين ابن أخي صلاح الدين حملة

بده حصار عكا
١٥ رجب
سنة ٥٨٥ هـ
٢٦ آب
١١٨٩ م

(١) يسميه ابن الأثير النهر الجاري . ويسميه ابن شداد نهر السلو .

عنيفة فأجلوهم عن مواقعهم . ويقول ابن الأثير : « لو أن المسلمين لزموا قتالهم إلى الليل لبلغوا ما أرادوه فإن للصدمة الأولى روعة ، ولكنهم لما نالوا منهم هذا القدر أخذوا إلى الراحة وتركوا القتال ، وقالوا نباكرهم غداً » . كذلك كان صلاح الدين قد استبدل الحامية بقوة جديدة ، وجهز عكا بالذخائر والأموال والسلاح ؛ وكان من جملة الأمراء الذين دخلوا المدينة وقتئذ حسام الدين ^(١) « أبو الهيجاء الملقب بالسمين » . وفي السادس من شعبان بدأ هجوم الفرنج فهبوا من حصونهم وحلوا على المسلمين حملة صادقة فصمد لهم المسلمون ، ودارت رحى القتال بين الفريقين حتى اضطروا الفرنج إلى التقهقر مشخين بالخسائر والجرحى . ومما يلاحظ أن جيوش صلاح الدين كانت وقتئذ موزعة على جميع أنحاء البلاد ، فكانت ثمة فرقة تراقب « اليمند » أمير أنطاكية ، وأخرى معسكرة في حمص تقابل طرابلس ، وثالثة تراقب صور ، ورابعة في دمياط والإسكندرية وغيرهما من المدن لحماية الثغور المصرية من غزو الفرنج من البحر ؛ وبالرغم من كثرة النجذات التي كانت ترد على صلاح الدين فقد بقيت قوته مع ذلك أقل عدداً من قوة الصليبيين الذين اعتزموا في ذلك الحين على سحقه قبل أن تصله قوات جديدة ، فدارت بين الفريقين رحى القتال ، ورجحت كفة الصليبيين في بادئ الأمر ، ولكنهم لم يلبثوا أن منوا بشر هزيمة بعد أن تكبدوا خسائر فادحة ، وبلغ عدد القتلى في صفوفهم نحو عشرة آلاف . وبالرغم من الجهود التي بذلها صلاح الدين في تنظيف ميدان القتال ، وإلقاء جثث القتلى في البحر ، فقد فسد الجو والهواء من نتن الجثث المكدسة في الميدان ، وانتشر من جراء ذلك وباء مريع وصلت عدواه إلى السلطان نفسه ، فأشار عليه الأطباء والقواد بالانسحاب بجيوشه إلى الخروبة ، ولكنهم ما كادوا يفادرون ذلك الموقع حتى

(١) كان من أمراء عسكر صلاح الدين وهو من الأكراد الحطية من بلدة أربيل .
(المرب)

استولى عليه الفرنج واستأنفوا حصار عكا . ويقال إنهم لأجل أن يحموا أنفسهم من هجوم صلاح الدين حفروا خندقاً عميقاً حول العسكر ، وشيدوا وراءه سوراً عالياً ليتحصنوا به فيما إذا عاد المسلمون إلى قتالهم وأصابتهم الهزيمة . وبعد أن قضى صلاح الدين الشتاء في الخروبة هبط في ربيع سنة ١١٩٠ إلى سهل عكا وحصن فيها مواقعه الأمامية . أما الفرنج فكانوا في مدة مقامهم على حصار عكا قد شيدوا أبراجاً خشبية شاهقة يعلوونها بالجنود ويهاجمون بها حصون المدينة ، كذلك كان المحصورون قد استعدوا في نفس الوقت لصد الهجوم بإشراف أحد المهندسين من أهل دمشق ، وأخذوا يذفون الصليبيين بالقلل والآلة بالنفط المشتعل حتى اندلعت أسنة النيران في البروج المتحركة (الدبابات) ، كما هاجم أسطول مصر أسطول الفرنج وألحق به أفدح الخسائر بالقرب من ميناء عكا . وتقول لنا الرواية إنه سرت إشاعة وقتئذ في معسكر المسلمين أدخلت على قلوبهم الرعب والقلق ، وهي أن « فردريك بارباروسا » ملك الألمان أخذ يزحف بجيشه الجرار على فلسطين ، وأن التركمان يعرفون سيره بناوأة جناحيه إلا أنه برغم ذلك نجح أخيراً في الوصول إلى بلاد الأرمن « كليسيا العليا » التي كان يحكمها ليون « الافون » بن أصفانه ؛ فبعث السلطان إلى حلفائه يستنصرهم ، كما أرسل وفداً إلى يعقوب المنصور سلطان مراکش ، ولكنهم جميعاً خذلوه وأعرضوا عن مساعدته ؛ وفيما كان الألمان يزحفون على أنطاكية اتفق أن غرق ملكهم في نهر السلاف بالقرب من سلوقية ، فانتشرت الفوضى بينهم ، ورجع على الأثر عدد كبير منهم إلى بلادهم ، وعلى هذا لم يزحف على فلسطين إلا شردمة قليلة بقيادة ابنه ، ومن ثم أقبلوا على إحدى السفن ، ففرق معظمهم في اليم .

فردريك
بارباروسا

١٠ - ٦ -
١١٩٠ م

١١٨١ -
١١٩٣ م

وفي العشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٨٦ خرج الفرنج من معاقلم واقتتلوا مع المسلمين قتالاً شديداً ، ولكنهم لم يلبثوا أن فروا هاربين ، تاركين وراءهم

٢٠ جمادى
الآخرة
٥٨٦ هـ

عدداً لا يحصى من القتلى والجرحى ، فازدادوا بذلك وهذا على وهن ؛ غير أنه لم يمض سوى يومين حتى أتت إلى الفرنج قوة هائلة من صوب البحر برئاسة (الكونت هنرى^(١)) ابن أخى ملك الفرنسيين وقريب ملك الإنكليز ، ولما وصل إلى الساحل أنزل جنوده على مقربة من عكا دون أن يلاقى أية مقاومة ، وشرع يوحد قواته مع قوات الصليبيين الذين كانوا وقتئذ معسكرين فيها . ولما حشد جنوده وأعلن عزمه على مهاجمة المسلمين ، ارتد صلاح الدين بجيشه إلى الحروبة ليكتسب الوقت الكافى ، ولكن جو ذلك الموقع كان قد فسد من تعفن الجثث فانسحب منه ؛ وعلى أثر ذلك شدد الصليبيون الحصار ، ولكن أهل المدينة أبدوا فى الدفاع عن مدينتهم بسالة منقطعة النظير ؛ كذلك أخذ الأميران قرقوش وحسام الدين بثيران الحماص فى قلوب الجنود حتى أبدى الجميع حمية وقوة إرادة جديرتين بالإعجاب ؛ واستخدما فى إدخال الميرة إلى المدينة ضروب الخيل والدهاء ، ولم يترك جنود المسلمين فرصة إلا انتهزوها لتتكيل بالفرنج ومباغتتهم^(٢) ، فكانوا يحرقون آلات المحاصرين ، وفى عدة معارك أجلوم عن مواقعهم حتى شدد الكونت هنرى الحصار ، ولكن السلطان برغم ذلك كان يزود الميرة عن طريق البحر من بيروت . ولما ينس الفرنج من الموقف أرسلوا إلى البابا حاكم رومة الكبرى كتابا يستنجدونه فأرسل إليهم النجيدات من كافة الأمصار ، وعندئذ كثرت جموعهم واشتد بأسهم ، ثم زحفوا بقيادة الكونت هنرى على مواقع السلطان الذى صمد لهم بأحسن تعبئة وأنتم نظام ، وكان أولاده الأفاضل على والظافر والغازى فى القلب ، بينما كان أخوه سيف الدين قائد الجيوش المصرية فى الميمنة ، كما كان أمراء حماه وسنجار والأمراء الآخرون فى الميسرة . واتفق أن كان صلاح الدين مريضاً فى ذلك اليوم المشهود ، فلم

(١) يسميه العرب « الكند هرى » .

(٢) ميثو .

٢٥-٧-
١١٩٠ م

وصول الكونت
هنرى

٢٧ جادى
الآخرة ٥٨٦ هـ

١-٨-
١١٩٠ م

٥٧٦-٥٨٩ هـ

يستطع سوى مراقبة المعركة من خيمته الصغيرة التي أمر بنصبها على تل مشرف على الميدان ، واستمرت الموقعة مدة طويلة ، ولكنها أسفرت عن هزيمة الفرنج ، ولولا المرض الذي طرأ وقتئذ على صلاح الدين لكانت تلك المعركة هي الحاسمة ؛ ويقال إن الفرنج بدأوا في ذلك الحين يشعرون بهول المجاعة ، كذلك اضطرم قرب حلول الشتاء إلى أن يرسلوا سفنهم إلى إحدى جزر اليونان القريبة . وكان من جملة الأمراء الذين دخلوا عكا « سيف الدين علي » بن أحمد المشطوب قائد الحامية ، التي لسوء الطالع لم تستبدل بغيرها كما ينبغي ؛ وبالرغم من أوامر السلطان الحاسمة أضاع الأمراء تلك الفرصة ، وأهملوا إرسال المؤونة والأرزاق الكافية إلى المدينة ؛ فلما حل فصل الربيع عادت سفن الفرنج أكثر عدداً مما كانت قبلاً ، وقطعت المواصلات بين السلطان وبين حامية عكا ، ولم يعد ثمة طريق لإرسال الكتب إلى السلطان إلا بواسطة الغواصين .

وفي ١٢ ربيع الأول سنة ٥٨٧ جاءت إمدادات جديدة إلى الفرنج المعسكرين في منطقة عكا ، وكان أول من وصل منهم « فليب » ملك فرنسا ، الذي يعد من أشرف ملوكهم نسباً ، وكان على رأس حملة قوية ، وفي الحال أرسل صلاح الدين الذي كان معسكراً « بشفرعم »^(١) الأمداد إلى قواده ، ولكن ملك الإنكليز كان قد وصل في عشرين^(٢) سفينة مملوءة رجالاً وأموالاً فعظم به شر الفرنج الذين اشتدت وطأتهم على المسلمين ، « وكان ملك الإنكليز رجل زمانه شجاعة ومكرراً وصبراً » ؛ فلما وردت الأنباء بوصوله أمر صلاح الدين بتجهيز سفينة مجهزة بالرجال والعدد والأقوات ، وأرسلها من بيروت إلى عكا ، غير أن الصليبيين هاجموها وكادوا يستولون عليها ، لولا حذق ربابها^(٣) يعقوب

٩-٤-
١١٩١ م

١١٨١-
١١٩٣ م

وصول ملك
الإنكليز ١٣
جاءى الأولى

٥٨٧ هـ
٨-٦-
١١٩١ م

(١) قرية تبعد ٣ أميال من عكا (معجم البلدان) .

(٢) يقول ابن الأثير : إن ملك انكلترة وصل إليهم في خمس وعشرين قطعة .

(المغرب)

(٣) كان ملك انكلترة وفرنسا قد أصيبا بالحمى عقب وصولهما إلى فلسطين . فلما سمع =

الحلبى الذى أغرقها فى الحال لثلا يظفر بها الأعداء ، وعندئذ بدأ حصار عكا يشتد ، غير أن الحامية قاومت مدى حين مقاومة شديدة ، وردت المحاصرين فى عدة معارك على أعقابهم مثقلين بالهزيمة . ومما يدعو إلى الأسف أن المسلمين بالرغم من هذه البطولة والتضحيات التى أبدوها لم تصلهم قوات جديدة من أسراء المقاطعات حتى تيقن السلطان بعد عدة معارك رائدة أنه لا يقوى على مقاومة الصليبيين ، وعلى هذا رفع الحصار وبدأ المحصورون ، وقد فتت فى عضد الحروب والأوبئة والمجاعات ، يشعرون بقسوة الكفاح الذى استمر سنتين متواليتين . ولما اشتدت عليهم الكوارث وعظمت المصيبة ، خرج مشطوب قائد الحامية إلى فليب أوغسطس وخاطبه بقوله : « لقد قضينا أربع سنوات نحكم هذه المدينة ، وعند ما استولينا عليها فى بادى الأمر أطلقنا سراح أهلها ، ومكناهم من الذهاب بأموالهم وعائلاتهم ، وإنا الآن نسلم إليكم المدينة بالشروط التى سبق أن منعناها لكم » ؛ فرفض ملك فرنسا الإبقاء على حياة السكان وأفراد الحامية ما لم يسلم المسلمون بيت المقدس وجميع المدن التى استولوا عليها من الصليبيين منذ موقعة طبرية ، فعاد الأمير إلى المدينة ، وقد وطد العزم على القتال حتى النهاية ، فإما النصر وإما الموت تحت أنقاض المدينة ، واستمر الكفاح اليأس مدى حين ، غير أن الجماعة كانت تفتك بالمحصورين فتكا ذريعاً ، بينما كان جيش السلطان عاجزاً عن مساعدتهم لقلة عدد جنوده ؛ وأخيراً سلم أهل المدينة على شرط الإبقاء على حياتهم ، وعلى أن يرد المسلمون من جثثهم صليب المسيح ، ويقدموا ألفاً وستائة أسير ومائتى ألف دينار لرؤساء الصليبيين ؛ ولما حدث بعض التأخير فى دفع الفدية أخرج « ريكاردوس ملك انكلترا » جنود الحامية وذبحهم بمرأى ومسمع من إخوانهم . ويقال إن الصليبيين خسروا فى الاستيلاء على حلب ستين ألف مقاتل .

مذبحة الصليبيين

== السلطان صلاح الدين بمرضهما أرسل إليهما فى الحال الثلج من جبال لبنان والفواكه الطازجة فى أثناء مرضهما .

ويقول ميشو : « إن الصليبيين المنتصرين تمتعوا أخيراً في مدينة «حلب» عندما استولوا عليها براحة لم يعهدوها منذ أن وصلوا إلى الشام ، فانغمسوا في ملذات الترف ، ونعم الحياة ، ونشوة نبيذ قبرص ، ومغازلة النساء اللواتي أتين من الجزر المجاورة ، فكل هذه المباهج والذائذ حملتهم على أن ينسوا إلى حين الغرض الذي جاءوا من أجله » . وبعد أن أنعشوا النفس زحفوا بقيادة « ريكاردوس » على عسقلان ، وكان السلطان يسيرهم حتى بلغ عدد المعارك التي نشبت على طول الطريق الذي لم يزد طوله عن المائة والخمسين ميلاً إحدى عشرة موقعة ، وخسر صلاح الدين في موقعة « أرسوف » وحدها ثمانية آلاف من أشجع جنوده ، ولما رأى أن جيشه أضعف من أن يحول دون تقدم القوات الصليبية الهائلة أسرع إلى « عسقلان » ، ونقل سكانها ثم خربها ولم يتركها إلا بعد أن أصبحت أرضاً ياباً ؛ فلما وصل ريكاردوس وشاهد بنفسه خرائب تلك القلعة التي كانت تعد من أقوى الحصون ، وأدرك أنه أمام خصم جبار عنيد أثرت فيه تلك الشخصية العظيمة أيما تأثير ، وفي الحال فتح معه باب المفاوضات لعقد معاهدة صلح بعد أن يؤس من معارك غير مشمرة لا طائل تحتها ، وكان فوق ذلك يتوق إلى العودة إلى بلاده التي بدأت تعصف بهاريج الفوضى ؛ فأرسل وفداً يطلب المفاوضات مع أخى السلطان سيف الدين الملك العادل فتقابل الأميران ، وكان ابن همفري^(١) يترجم بينهما ، فأبدى ريكاردوس رغبة شديدة في عقد الصلح ، وذكر شروطه ، ولكن السلطان رأى استحالة إجابتها ، ولهذا فشلت تلك المفاوضات وكان المراكز مونتفرات وقتئذ يسخط على تصرفات ريكاردوس ، فأرسل وفداً إلى السلطان يعرض عليه الصلح من جديد ، ويشترط لذلك أن يمنحه صيدا ويبروت ؛ فاستجاب السلطان لدعوته على أن يقوم هو أولاً بتنفيذ الشروط ،

— ١١٨١
٢١١٩٣

الملك ريتشارد
يطلب الصلح

(١) يقول بهاء الدين ابن شداد إنه رآه في يوم عقد الصلح وبهيفة بأنه كان جميل الطلعة غير أنه كان يخلق لحيته على عادتهم .

ولكن ما انقضت مدة وجيزة حتى وصلت الرسل من ملك انكلترا يعرضون مقترحات أخرى ومعهم كتابان إلى « أخيه وصديقه » الملك العادل والسلطان . وكانت الشروط الوحيدة التي عرضها الصليبيون هذه المرة هي أن يسمح لهم بالاحتفاظ بالمدن التي بأيديهم ، وأن يرد إليهم بيت المقدس ، وخشبة الصليب الحقيقية ؛ فرفض السلطان إعادة القدس رفضاً باتاً إلا أنه أعرب عن استعدادة ٥٥٨٩-٥٧٦ إلى إعادة خشبة الصليب على شرط أن يعقد الصلح طبق رغباته .

ولكن ملك انكلترا لم يلبث أن استأنف مفاوضاته ثانية مع الملك العادل وتوصل معه إلى وضع مسودة اتفاق يمرض فيما بعد على السلطان ومجلسه للمصادقة عليه ، وكانت شروطه أن يزوج أخته « أرملة ملك صقلية » من الملك العادل ، وأن تعطى عكا وما بيد الفرنج من البلاد إلى أخته الآنفة الذكر ، وأن يعطى كذلك ما بأيدي المسلمين من بلاد الساحل إلى العادل ، بل أن يحكم الزوجان مدينة القدس بصفة كونها مدينة محايدة حرة لأتباع الديانتين ، وأن تستبدل الأسرى ، ويماد الصليب للمسيحيين ، ويحتفظ الرهبان بامتيازاتهم . فرأى السلطان في هذه المقترحات وسيلة لإعادة السلم بين أهل الديانتين ، ولهذا لم يتردد قط في قبولها ، ولو أن الكهنة سمحوا وقتئذ بتوقيعها لقربوا مسافة الخلف بين المالمين المسيحي والإسلامي . غير أنهم أثاروا اعتراضاً شديداً على فكرة تزوج أميرة مسيحية من بطل شجاع وأمير كريم كسيف الدين وراحوا يهددون الملك بالحرمان ، كما أخذوا يضربون على وتر العقيدة الدينية والأوهام التقليدية حتى ضمنوا رفض الملكة ، فروع ريكاردوس من تهديداتهم ؛ وأرسل وفداً إلى صديقه يطلب إليه أن يمتنع المسيحية ، ولكن الأمير رفض بالطبع سماع مثل هذا الرأي السخيف رفضاً باتاً .

وفي تلك الأثناء وفدت على السلطان بعثة أخرى من المركز ، غير أن ملك انكلترا كان قد أرسل مقدم الإسماعيليين يحرضه على الفيلة من حليفه المزعج ؛

فلم يلبث رئيس الإسماعيلية أن انتدب فدائيين فقتلاه في السادس عشر من ربيع
الآخر سنة ٥٨٨ هـ^(١)، وعندئذ زحف ريكاردوس ملك إنكلترا في جيش كبير
على بيت « المقدس »، ولكنه منى بشر هزيمة فاشتدت بذلك رغبته في مغادرة
فلسطين، وبعث وفداً آخر إلى السلطان يعرض عليه شروط الصلح. ومما قاله
إنه يود أن تعقد بينهما أواصر الصداقة والود، وإنه لا يطمع في امتلاك أرض
المسلمين، ولهذا فإنه يقطع الكونت هنرى ابن شقيقته البلاد التي كانت بيده
ويتركه في رعاية السلطان. ومن قوله أيضاً: إن الكونت سيأبى أوامر السلطان
ويصحبه في غزواته في الشرق، وإنه لا يطلب من صلاح الدين غير كنيسة
القدس وحدها. فأرسل السلطان بعد أن استشار قواده — ولا سيما أنه كان قد
شعر بحاجة البلاد إلى الطمأنينة والهدوء، ورغبة الجيش في الراحة بعد هذا
الضنك والبؤس الشديدين — جواباً ودياً، وعادت البعثة هذه المرة ومعها ابن
الكونت هنرى يحمل الهدايا النفيسة من ملك الإنكليز، وأعلنت تنازل
الصليبيين عن بيت المقدس، ولكنها طلبت مقابل ذلك منح الكونت
المدن الثلاثة: عسقلان والداروم وغزة؛ فرد السلطان عليهم أنه لا يمكنه
إعطاء الملك غير مدينة « اللد » وحدها. ولما علم أن الصليبيين يزحفون على
بيروت أمر جيشه بالزحف فاستولى على يافا، وعندئذ طلب ملك إنكلترا ثانية
إلى الملك العادل استئناف المفاوضات، وألح عليه أن يرسل وفداً عنه ليقروا
شروط الصلح؛ وحالما وصل الوفد الإسلامي أخذ ملك إنكلترا يشيد بذكر
السلطان ومزاياه، ثم ناشد الأمراء أن يقنعوه بعقد الصلح فأجابهم صلاح الدين
إلى طلبهم، وأقطع ملك الإنكليز ساحل البحر من صور إلى قيصرية، غير أن
ريكاردوس طلب هذه المرة إعطاء يافا وعسقلان؛ فقبل السلطان أن يقطعه يافا
وحدها رافضاً التنازل عن عسقلان مهما كلف الأمر.

(١) فون هامر في كتابه تاريخ الحشاشين.

عقد الصلح في
٢٢ شعبان
سنة ٥٨٨ هـ
٢ أيلول سنة
١١٩٢ م

وأخيراً تنازل ملك إنكلترا عن المطالبة باستقلال ، وفي الحال عقدت شروط الصلح ، « وصدر بيان بذلك فسادت الطمأنينة ، وانتشر الأمن في ربوع البلاد وضمنت حرية الشعب في التنقل ، وكان يوم إعلان الصلح يوماً مشهوداً ففرح الناس فرحاً شديداً ، وعادت الجنود إلى أوطانها بعد أن كانت قد جاءت من الأصقاع البعيدة لتعزيز الجيش الرابط في فلسطين والشام » ، ولم يلبث ريكاردوس أن عاد إلى بلاده ؛ أما ما حدث له بعد ذلك فأمر لا يجهله قراء تاريخ إنكلترا .

نهاية الحرب
الصليبية الثالثة

وهكذا انتهت الحرب الصليبية الثالثة التي هلك فيها عدد لا يحصى من الناس ، وخربت آلاف الدور العاصرة في الشرق والغرب ، وخسرت ألمانيا أحد براطرتها العظام ، كما فقدت فرنسا وإنكلترا زهرة فرسانها ، ولم تكسب المسيحية شيئاً غير عكا !!

وفاة صلاح الدين
— ٣ —
١١٩٣ م

وبعد سفر ريكاردوس استراح صلاح الدين قليلاً في القدس . ثم سار تحرسه كوكبة من الفرسان نحو الساحل ليمتدح الثغور ، وأمر بإصلاح ما خرب منها ، كما شيد في القدس مستشفى ومدرسة وولى على المدينة سكرتيره^(١) ومترجم حياته ، ثم عاد إلى دمشق ، وبقى فيها هو وأسرته حتى وافته منيته يوم الأربعاء ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ هـ . ويقول كاتب مسلم : « كان يوم وفاته نكبة على الإسلام والمسلمين ، كما كانت مصيبة لا تعدلها إلا مصيبتهم بوفاة الخلفاء الراشدين ، فعم السراى والإمبراطورية بل العالم أجمع الحزن العميق ، وعلا الصياح والبكاء والنحيب في المدينة على وفاته » .

صفاته ومناقبه

وهكذا توفي عظيم من أشهر العظماء ، وبطل من الأبطال الذين قلما يوجد بمثلهم الزمان . وتقول لنا الرواية : إنه كان قد أمر قبل وفاته بتوزيع المال على الفقراء دون تمييز بين الجنس والدين ، ويكفي دليلاً على كرمه أنه لم يخلف في

(١) اسمه حوردريك . وهو من الممالك النورية . (المغرب)

خزائنه غير دينار واحد و ٣٦ درهما أرسلت إلى بغداد مع الرسول الذي نعاها إلى الخليفة . ويمكن الحكم على أخلاقه من وصف معاصريه له بأنه كان كريماً حليماً حسن الأخلاق ، متواضعاً صبوراً على ما يكره ، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه ، صديقاً للعلماء والأتقياء ، حريصاً على أن يكونوا في معيته ، وكان يعاملهم دائماً بالمعطف والإحسان .

ومن مآثره أيضاً أنه شيد الكليات والمستشفيات في جميع أنحاء الإمبراطورية وكان وزير السلطان القاضي الفاضل^(١) — الذي استوزره ثلاثة سلاطين من آل بويه — يتنافس مع سيده في تكريم العلماء وتشجيع العلم ، كذلك لم يكن مجلس صلاح الدين مؤلفاً من القواد أمثال قرقوش وحسام الدين ومشطوب فحسب بل كان للعلماء في ذلك المجلس مكانة عظيمة ؛ ومن جملتهم القاضي والكتاب عماد الدين سكرتير السلطان والقاضي الحقاري الذي غالباً ما استبدل لباس القضاء الفضااض ببزة الجندي^(٢) المتفاني .

(١) هو أبو علي عبد الرحيم الملقب بالقاضي الفاضل ، وينتسب إلى عائلة مريية أصيلة اسمها « لحم » ؛ ومسقط رأسه مدينة عسقلان .

(٢) يصف الرحالة المشهور عبد اللطيف البغدادي السلطان بعد أن عقد الصلح مع الملك ريتشارد بقوله : إنه يستميل إليه القلوب . وإن أول مساء قضاء بصحبته رأى أنه محاط بالعلماء الذين كانوا يناقشون في كل فرع من فروع العلم ، وكان يصني إليهم بفرح وسرور ، وغالباً ما كان يشترك معهم في المناظرات ، وكان في تلك الأثناء يهتم بتشديد أسوار بيت المقدس ، فكان يشرف على العمل بنفسه ، بل كثيراً ما كان يحمل الحجارة على كتفيه وكان يذهب إلى محل العمل قبل شروق الشمس ، ثم يعود عند الظهر فيستريح قليلاً بعد تناول الطعام ، وفي المصركان يذهب إلى محل العمل فلا يعود إلا على ضوء المشاعل . وكان يقضي معظم الليل في النظر في شؤون اليوم التالي .